المحاضرة الثالثة والرابعة: جذور الحداثة.

أوّلا: جذور الحداثة عند الغرب:

يعتبر الحديث عن بداية الحداثة من أكثر القضايا التي تثير خلافات بين الدّارسين، ويعود الاختلاف في تحديد نشأة الحداثة إلى الاختلاف في مفهوم الحداثة ذاتها، وماذا يقصد منها، ومن يمثّلها. وإذا كان الاختلاف حاصلا بين المؤرخين والمفكرين في تحديد المرحلة التاريخية التي بدأت فيها الحداثة. فإنّ ثمة ما يشبه الإجماع على أن الحداثة مرتبطة بفكر حركة الاستنارة الذي ينطلق من فكرة أن الإنسان هو مركز الكون وسيده، وأنه لا يحتاج إلاّ إلى عقله لتسيير شؤون حياته.

وفي سعينا إلى تحديد مختلف المحطات التي اتّخذها الدّارسون منطلقا للحداثة نعرض نظرة للكاتب المغربي (محمد بنيس) هدف منها إلى تعريف الحداثة، حيث أشار إلى أنه يمكن تحديد المقاربات الغربية للحداثة في ضوء مسارين أساسيين:

مسارٍ يتجه إلى قطيعة مع الماضي وهو "**المسار الذي يحصر الحداثة في الفترة التاريخية لما بعد 1453م، سنة سقوط القسطنطينية، فيفصلها، بذلك، عن كل من العصور القديمة والوسطى. ويثبت ما يطبع القرنين الخامس والسادس عشر من حركة الإصلاح الديني، والإنسية في الحقل الثقافي، والاكتشافات الكبرى في الحقل العلمي.**"1

ومسارٍ آخر يتجه إلى ربط الصلة مع الماضي، يرى أن مصطلح "الحداثة" "**مترسخ في تقاليد أدبية عريقة" تعود إلى الثقافة اليونانية واللاتينية على السواء، حيث كان على امتداد تاريخ أدب هاتين الثقافتين، صراع بين أنصار الحديث وأنصار القديم تبعاً لرغبة كل جيل في الاعتراف بزمنه، وهو ما تكرر مع مرور الزمن.**" 2

فمن هدين المسارين نستشفّ اختلاف المهتمين في تحديد المرحلة التاريخية التي بدأت فيها الحداثة. حيث يرى بعض المؤرخين أن العصر الحديث بدأ مع سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين عام 1453م، ثم اكتشاف أمريكا من قبل (كريستوف كولمبس) عام 1492م. وينظر آخرون أن تخوم العصر الحديث تبدأ مع الأحداث التاريخية الكبرى، التي تمثلت بادئ بدء في اكتشاف (جاليلو) لمركزية الشمس؛ وإذا كان التحديث أو العصر الحديث يبدأ مع هذه المؤشرات التاريخية فإن مفهوم الحداثة يتجلى أكثر في حركة الإصلاح الديني في أوروبا التي قادها

مارتن لوثر في عام 1517م. ومن ثمّة بدا هذا المفهوم يأخذ أبعاده الفلسفية والسياسية في القرنين السابع عشر، والثامن عشر، حيث تتجلى خصائصه في ولادة التفكير الفردي والعقلاني الذي أرسى مقوماته فلاسفة التنوير بعامة، الذين حرّروا الفكر الغربي من القمع الملكي، الارستقراطي، والدّيني المسيحي، وهو ما أدى إلى ظهور الفكر التّنويري؛ فبحسب الفيلسوف الألماني (فريدريك هيغل)، (1770-1831)م، فإن الحداثة بدأت مع "**عصر الأنوار بفعل هؤلاء الذين أظهروا وعيا وبصيرة، باعتبار أن هذا العصر هو حد فاصل، ومرحلة نهائية من التاريخ**"3.

لقد شكّلت دعاوى فلاسفة التنوير في أوروبا في القرن الثامن عشر إلى تغليب حكم العقل والاهتداء به في الحكم على الأشياء إدراكا منهم بأن الإنسانية عبر تاريخها اهتدت بالعقل إلى اكتشافاتها وحضاراتها المتعاقبة. وقصدوا بذلك اعتماد المنهج العلمي التجريبي في النظر إلى الكون والوجود والحياة، ومن ثمة التّحرر من أسر الأوهام والخرافات والتحيزات المسبقة التي تضرب أسس التفكير، وتشل قدرة العقل في الكشف عن ماهية الأشياء. وشكّلت هذه الدّعوة حربا ضد كل أشكال التخريف والشعوذة والتعصب، التي فرضتها الأنظمة الكنسية الإقطاعية التي وضعت تاريخ أوروبا الوسيط في دائرة الظلام[4]. ففي عصر الأنوار وما يليه بدأت الدولة المركزية بتقنياتها الإدارية تأخذ مكان النظام الإقطاعي والتأكيد على العلوم الطبيعية، والفيزياء، كما أخذت الفنون تأخذ ظلالها الإبداعية في أوروبا.

ومن أهم فلاسفة الأنوار الذين أسهموا في تحويل مسار المجتمع الغربي، والسّير به خطوات عملاقة في طريق الحداثة نتوقّف عند بعض أفكار كل من: رونيه ديكارت، وايمانويل كانط، العلمان البارزان في ذلك العصر:

يوصف الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (1596-1650) René Descartes بأنّه أب الحداثة ولا سيما في مجال التفكير الفلسفي. إذ أمكنته عبقريته التاريخية الفذة إلى اكتشاف المنهج العقلي الذي بدد ظلام العصور الوسطى، وأن حرر العقل الغربي من عبودية وهمجية الأفكار والمعتقدات الخاطئة التي حاصرت العقل. فكان لمنهج الشك والشك المنهجي أن يشكل معول الهدم الجبار الذي تناثرت تحت صدماته الأوهام التاريخية التي صنعتها الكنيسة، ورجال الإقطاع على مدى أجيال وأجيال، امتدت لتشمل القرون العشرة التي بدأت منذ القرن الخامس الميلادي. وأكّد ديكارت روح البحث العلمي الحر والقناعة الفكرية الواعية محل المعتقدات

العمياء. والشك المنهجي يعتمد لديه على قواعد هامة تقول أولاها: ألا نقبل شيئا ونعتقد بصحته ما لم يتبين لنا بالبداهة كذلك، وألا نضم إلى أحكامنا حكما ما لم يره فكرنا ببينة واضحة متميزة، وما لم يكن في مأمن من كل شبهة وشك. ومثل هذا المبدأ: **"لا يصلح به العلم ويقلب الفلسفة فحسب، بل يهدم مذهب السنة القديمة والطرق الآلية(...) ويوقظ أفكارا ويحرض الحكم والتفكير**"5. وهذا المنهج الذي ينطلق من الشك ويدعو إليه هو الأصل في تبديد ظلام الأفكار والمعتقدات والأوهام الخاطئة التي رفعت إلى مرتبة القدسية في العصور الوسطى المسيحية. وفي هذه المنهجية وفي ذاك التأثير تمثلت واحدة من أهم لحظات الحداثة ومقوماتها في الحضارة الغربية.

وفي السياق ذاته، أسهمت أفكار الفيلسوف الفرنسي ايمانويل كانط، في زيادة وهج الحداثة، وتألّقها؛ فمن خلال كتابه (ما الأنوار؟) [6] حاول هذا المفكر أن يحدّد طبيعة، وماهية عصر التّنوير؛ فبيّن أن عصر التنوير هو منظومة الوضعيات التي يحاول فيها الإنسان أن يحطم الأغلال التي وضعها هو نفسه في معصمه، إنها الحالة التي يسعى فيها الإنسان إلى تحطيم دائرة الوصاية التي تسبب فيها بنفسه، إنها في نهاية الأمر العملية التي حقق فيها لعقله التحرر من الوصاية التاريخية التي فرضت عليه من الخارج. ويؤكد كانط في كل أعماله أن شرط التنوير والحداثة هو الحرية، ومن بين الحريات يؤكد على تلك التي تتصل بحرية العقل وحرية التفكير[7]. إن الجوهري في مقولات كانط هو أن العقل يجب أن يتحرر من سلطة المقدس ورجال الكهنوت والكنيسة وأصنام العقل؛ كي يستطيع الإنسان أن يبني نهضته نحو الحضارة والحرية والمدنية والحداثة ... ويعرف الفيلسوف الألماني كانط الحداثة في سياق إجابته عن سؤال "ما الأنوار؟" في مقولته المشهورة: **"الأنوار خروج الإنسان من حالة الوصاية التي تتمثل في عجزه عن استخدام فكره دون توجيه من غيره"**. ولذا كان شعار الأنوار عبارة تقول: **"أقدم على استخدام فكرك"**[8].

وبنظرة أخرى، يربط بعض الباحثين عصر الحداثة باختراع الألماني جوتنبرغ لآلة الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر، من منطلق قدرة هذا الاختراع أن يبدل ذاكرة الإنسانية، بأن يجعلها تعتمد الكتابة سجلا تاريخيا، تستند إليه الأمم، في حركة نهضتها، وبناء تقدمها العلمي والمعرفي. فقد شكل هذا الاختراع مرحلة انتقلت فيها الإنسانية من حضارة المشافهة إلى حضارة الكتابة، وعلى أساسه استطاع الإنسان توظيف التراكم المعرفي في خدمة الثورات العلمية المتعاقبة التي توجد في أصل الحداثة.

كما يعتبر مفكرون آخرون أن بروز أشكال الحداثة بدأ بعد الثّورة الفرنسية (1789 - 1799)م، مرورا بإنهاء الملكيات في أوربا، وكذا في أمريكا التي دامت ثورتها ضدّ الملكية المفروضة عليها من بريطانيا حوالي سبع سنوات. فقد أسّست الثورة الفرنسية مفهوم الدولة الدّيمقراطية، والقيم الليبرالية، والحرّية؛ وأدخل التقدم المستمر للعلوم والتقنيات وتقسيم العمل إلى الحياة الاجتماعية بُعدَ التغيير المستمر وانهيار المعايير والثقافة التقليدية. وقد رسّخت هذه الظّروف والعوامل الاجتماعية انطباعاتها في مفهوم الحداثة وأبدتها على أنها ممارسة اجتماعية ونمط من الحياة يقوم على أساسي التغير والابتكار المستمر والدّائم.

وعلى العموم، فإنّ لفظة "الحديث" في الثّقافة الأوربية قديم يعود إلى القرن الخامس (5) ميلادي، واستعملت في إطار الصّراع بين القدامى والمحدثين. القدماء ويمثلون المتحيّزون للتراث الروماني الوثني، والمحدثون الملتزمون بالفكر الدّيني المسيحي، وهو نفس الصّراع الذي ظهر في البيئة العربية قديما بين القدماء والمحدثين.

أمّا مصطلح، ومفهوم "الحداثة" فيعود –فقط-إلى القرن التاسع عشر (19م)، واستعمل بداية استعمالا جماليا قبل أن يأخذ بعدا فلسفيا، فكريا.

يتفق، إذا، أغلب المهتمين بالحداثة أن الكلمة الحداثة (modernité) ظهرت لأول مرة في القرن التاسع عشر، لكن يبقى الاختلاف حول أول من استعملها، في اللغة الفرنسية، حيث يشير قاموس روبير الفرنسي (le ROBERT) أن الروائي الفرنسي (بلزاك) (Balzac)، هو أول من استعمل لفظ (modernité)، وذلك سنة: 1823م، بينما تأخذ بعض الآراء منحى آخر وتعتبر الكاتب الفرنسي (فرانسوا شاتوبريان) (François-René de Chateaubriand) أول من استخدم هذا المصطلح عام 1849م؛ ويكاد ينعقد الإجماع بين جل المتابعين لمفهوم الحداثة أنّ الشاعر الفرنسي (شارل بودلير) (Charles Baudelaire) أول من استعمل مصطلح "الحداثة"[9]، في إطار دراسته لأعمال أحد الرّسامين الفرنسيين، وهو (قسطنطين جوين)، وكان عنوان الدّراسة هو: (رسام الحياة الحديثة)؛ وكان بودلير يشير بالحداثة إلى كل ما هو "عابر" و "متغير"، ولكن هذا العابر والمتغيّر يجد قيمته في ذاته، فهو يتأسس على نفسه، ولا يتأسّس على غيره، وهذا يستلزم أنّ الحداثة تتأسّس جماليا على نفسها، أي أنّها تجد أعمدتها (أسسها) في نفسها، ولا تحتاج إلى أن تستدعي قيما خارج زمانها، وهذه النّظرة تتوافق مع نظرة الفيلسوف (هيغل) الذي عبّر في كتابه (فينومونولوجيا الروح) عن ضرورة تجاوز الفلسفات القديمة، واصطلح مصطلح (الأزمنة الحديثة)، التي تجد معيارها في ذاتها[10].

يمكن إجمال الآراء السابقة حول جذور الحداثة الغربية فيما يلي:

-الحداثة ظاهرة ضاربة في عمق التّاريخ، حيث يعتبرها البعض-بالنّظر إلى خصائصها الأساسية-قد بدأت "...**منذ عهد بعيد جدا، أمّا تسميتها "بالحداثة"، فهي التي يمكن أن يُختلف على بدايتها؛ لأنّها تمثّل هذه الخصائص في حركتها في العصور الحديثة."**[11]، وقد تجلت الحداثة وفقا لهذا الرأي منذ ما عرف بعصر النهضة في القرن الخامس عشر (15) الميلادي عندما انسلخ المجتمع الغربي عن الكنيسة وثار على سلطاتها الروحية التي كانت بالنسبة لهم كابوسا مخيفا.... فالكنيسة كانت المفسر الوحيد للدين والمعرفة، تتدخل في صياغة كل شيء، وقد تعدت سلطة الكنيسة المجتمع، فهي سلطة على الملوك والأمراء الذين وافقوا على هذا التسلط نتيجة لما حبتهم به الكنيسة، فحكمهم للمجتمع مستمد من السلطة الإلهية... فالكنيسة هي الإله أو من يمثله على الأرض" ؛ ومن الباحثين من يعتبرُ أنّ جذور الحداثة تعود إلى "كانت"، و"هيجل"، و"ماركس"، ولذلك فإنّها نقطة لقاء: الفلسفتين المثالية والمادية، الديمقراطية والديكتاتورية، الرّأسمالية والشّيوعية.

-من المفكّرين من يعيد الحداثة "**إلى القرن السابع عشر، والثامن عشر، ومنهم من يعيدها إلى القرن التاسع عشر، نصفه الأوّل، أو نصفه الثّاني، ومنهم من يعتقد أنّها ابتدأت في أوائل القرن العشرين.**"12 فقد نشأت الحداثة بحسب هذا الرأي على أيدي شعراء فرنسا " شارل بودلير"، و"رامبو"، و"ملارميه "، وذلك مع بداية الرمزية ونهاية الرومانسية سنة 1830 في باريس. **وفي ذلك يقول الناقد، جمال شحيد:** "انطلقت فترة الحداثة _والحق يقال_ من رحم الثورة الفرنسية التي ركزت بالرغم من فترتها اليعقوبية الدموية على سيادة العقل والتعقل والعقلانية ، وهي مقولات انتشرت في عصر الأنوار الأوروبي، وأنسلت مجموعة من المفاهيم (إلغاء الحكم السياسي المطلق، واعلان حقوق الإنسان، وحرية الفرد، وفصل الدين عن الدولة (العلمانية أو الدنيوية)، والنهضة والإصلاح، وترسيخ دولة القانون، إطلاق المجتمع المدني، دمقرطة الثقافة والعلوم والمجتمع وترسيخ روح المواطنة، مع ما تحمل من واجبات وحقوق، وتركيز على العقد الاجتماعي _الذي نادى به جان جاك رسو خاصة_ تحديث لمجتمع، واقامة توازن بين الروح والجسد.) "

- ويرى " كيرمود" أنها انطلقت مع السنوات العشر الاولى في القرن العشرين وآخرون بدايتها بين: 1910، 1914م.

- ويحدد ".لورانس" بداية الحداثة لحركة أوروبية أدبية وفنية كبرى سنة , 1915 حيث شهدت نهاية العالم القديم عالم ما قبل (ح ع 2).

- وترتضى "فرجينيا وولف" عام 1910، بينما يختار "أزرا باوند" عام ,1912، وهو العام الذي تم فيه تدشين النزعة التصويرية إحدى أهم حركات الحداثة في إنجلترا.

- ويرى "هاري ليفين "أن مد الحداثة كان ما بين عامي 1922، 1924م.

- ويفضل ريتشارد إيلمان عام 1900 لبداية عنفوان الحركة.

لقد اختلف النقاد في تحديد تاريخ نشوء الحداثة، وفي تحديد مكان نشوئها أيضا، ودلالتها وكذا الموقف منها إلا انهم مجمعون على نشأة الحداثة في الغرب.

وعلى العموم فإنّ الإنجازات الحضـــارية المتوالية المتجسّـــدة من تطور العلوم والتقنيات والتطور العقلاني والمنظم لأدوات الإنتاج رسّـــم حدود الحداثة، حيث تبدت هذه الحداثة في تكثيف العمل الإنســـاني، وتأكيد الهيمنة الإنســـانية على الطبيعة، وأدّى هذا إلى تغيير عميق في شروط الحياة والتفكير.

.....

ثانيا: **جذور الحداثة عند العرب.**

تراوحت آراء نقادنا ومفكرينا بين من يرى في الحداثة صدى لتصورات ومفاهيم نقدية أوروبية، وبالتالي فهي "ليست ظاهرة عربية بالأصل"، وبين من يحاول أن يجد لها أصلا في تراثنا العربي القديم.

يقول محمود أمين العالم-وهو من من يجسّد التّوجّه الأوّل الذي يعتبرُ الحداثةَ العربية تبعٌ للحداثة الغربية-: " **إن التصورات والمفاهيم الأساسية لهذا الفكر النقدي هي صدى لتصورات ومفاهيم نقدية أوروبية، وأن مختلف الاتجاهات في نقدنا العربي المعاصر هي صدى لتيارات نقدية أوروبية ووراء هذه التيارات مفاهيم ابستمولوجية وايديولوجية**."13؛ ويؤكّد أنطون مقدسي هذا الطّرح بالقول: " **الحداثة ليست ظاهرة عربية بالأصل، فهي أتتنا ككافة التيارات الفكرية والأيديولوجية والأدبية والفنية وغيرها من العالم المصنع، ثم تأصّلت تدريجياً وأنتجت على الخصوص في مجال الأدب مؤلفات عربية خالصّة أو تكاد تكون خالصّة، أي لها الكثير من الأصالة." 14** كما صرّح، أدونيس، أن " **الحداثة في المجتمع العربي لا تزال شيئا مجلوبا من الخارج، إنها حداثة تتبنى الشيء المحدث، ولا تتبنى العقل أو المنهج الذي أحدثه، فالحداثة موقف ونظرة قبل أن تكون نتاجا**."15

وبمقابل هذا الرأي، نجد من يدافع عن أصالة الفكر الحداثي في تراثنا العربي، ورأى أن للحداثة العربية جذور تعود إلى القرن (7) السابع ميلادي، أين بدأت بوادر اتجاه شعري جديد تمثل في شعر بشار بن برد، وابن هرمة، والعتابي، وأبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأبي تمام، وابن المعتز، والشريف الرضي، وآخرون .) .....فأبو نواس أول من هدم نظام القصيدة القديم وأطاح بالمقدمة الطّللية، واضعا بدلها المقدمة الخمرية، وكذلك فعل أبو تمام برفضه للقديم وسعيه وراء التجديد.

يرى الباحث جابر عصفور أنّ للحداثة أصل في تراثنا العربي فيقول: (**الحداثة مصطلح بالغ العراقة والجدة في الوقت نفسه؛ ذلك لأنه يشير-تراثياً-إلى الصّراع بين "القدماء" و"المحدثين،" ذلك الصّراع الذي يفرض إعادة النّظر في الموروث من التّصورات الأدبية والاجتماعية والدينية. وكان ذلك على أساس من وعي متغير بواقع متحول من ناحية، وعلى أساس من حوار مع تراث آخر، يعاد إنتاجه لصالح هذا الوعي المتغير من ناحية ثانية. وبالقدر نفسه يشير**

المصطلح إلى صراع جديد، معاصر، بين "قدماء" و "محدثين" حول التّغيرات الجذرية التي وقعت في القصيدة العربية المعاصرة، منذ أعقاب الحرب العالمية الثّانية."16

ثم امتدت الأفكار الحداثية في البيئة العربية عبر ما عكسته أفكار الأديب والناقد، طه حسين، حيث "...**جرت مقايسة بين "طه حسين" من جهة، ومفكري عصر التنوير من جهة ثانية فاعتبر مشروعه الفكري قمة عصر التنوير في عالمنا المعاصر، وأنه ثورة تنويرية، أو أنه ذو طبيعة تنويرية كونه نقل النظرة إلى التراث من الحيز اللاهوتي الذي يقدس الماضي إلى النقد التاريخي الذي يرى الماضي صيرورة موضوعية ينبغي أن تخضع لمناهج التحليل والنقد**".

ثم تواصل الحداثة العربية مدّها، وتألّقها، عبر آراء جماعة الديوان، وأبولو والمهجر، يقول محمد بنيس: " **عادة ما يضع مؤرخوا الشعر العربي الحديث نهاية الأربعينيات أو أواسط الخمسينيات بداية للحداثة."**

كما يعتبر " يوسف الخال من أوائل من دعا إلى الحداثة في العالم العربي بعد مجيئه من أمريكا، وتأسيسه لمجلة (شعر) شتاء سنة 1957م؛ والتي يُعتبَرُ ظهورها بمثابة "**حدث الميلاد للحداثة العربية ... ولا يمكن لأحد أن يتحدث عن الحداثة العربية المعاصرة دون أن يعود إلى مجلة "شعر" التي حمل أصحابها، وخاصة مؤسسوها والأدباء الذين آزروهم، لواء الرفض والتغيير والبحث عن البديل المناسب لثقافة، وأدب، وفن، تحجّرت مقاييسه وقواعده النّظرية؛ فجاءت مجلة (شعر) لتحتضن طائفة من الأدباء والشّعراء وجدوا على صفحاتها متنفّسا ومجالا طيّبا للتّعبير الحر عن مكنونات النّفس المتفرّدة والبكر."17**

ومن أبرز أنصار الحداثة في العالم العربي نذكر: أدونيس"، "كمال أبو ديب"، "سلامة موسى"، " شكري عياد "، " خالدة سعيد "، "إلياس الخوري"، وغيرهم كثير.